

الفصل الثالث والعشرون

وعدت إلى غرفتي بعد ساعة، راضية عن نفسي كل الرضا، مطمئنة إلى قوتي كل الاطمئنان، فقد بلوت الخصم ولقيت العدو في ميدانه الذي اختاره هو، وكانت بيني وبينه مقدمات النضال، فلم أضعف له، ولم أشفق منه، وإنما ثبتُّ له ثباتًا، ثم انصرفت عنه وقد علقتة بين السخط والرضا، ووقفته بين اليأس والأمل. لم أجد في شيء من هذا كبير مشقة، ولم أحتمل في شيء من هذا عظيم عناء، وإنما هو الابتسام المطمع المغربي، والاحتشام الذي يفل العزم ويثبط الهمم، ويبسط سلطان الحياء على النفس فإذا هي ترتد بعد امتدادها، وعلى الوجه فإذا هو يظلم بعد إشراقه.

وقد كنت أقدر أن المعركة الأولى ستكون عنيفة يملؤها الهول، ويحرق بها الخطر، وتنتهي إلى الفصل فيما يكون بيني وبين هذا الشاب فأما ضعف واستئثار، وإما قوة وانتصار، يتبعها الطرد العنيف من هذه الدار، ولكنني ملكت أمري وملك هو من أمر نفسه ما جعل المعركة الأولى مقدمة لا خاتمة، وما أجل الفصل في هذه الخصومة إلى أجل ظنه قريبًا ورأيته بعيدًا، وقد انصرفت عنه بعد أن أعنته على بعض أمره وهيأت له ما يحتاج إليه، وتركته كاسف البال يظهر الرضا والابتهاج، وهو يقول: لا بأس! إنك في حاجة إلى التربية والتمرين.

ولم أكد أثوب إلى غرفتي وأغلق بابها من دوني إغلاقًا محكمًا حتى تراءت لي أختي وهذه الظلال التي ترافقها، كأنما كن ينتظرني ليعلمن علمي وليسمعن نبأ ما أبلت مع الخصم من بلاء، ولقد هممت أن أتحدث إليهن، وأقص عليهن ما سمعت وما رأيت، وما عملت وما أبيت، ولكن ماذا؟ إنهن ينظرن إليَّ نظرًا قصيرًا، ثم يلمع في وجوههن الشاحبة ابتسامة الرضا، ثم يستخفين استخفاء كأنما ابتلعهن الظلام ابتلاعًا، وكنت أظن أنني سأنتظر معهن مطلع الفجر، سامرة كما كنت أسمر منذ حين قبل أن يرقى إليَّ سيدي